

المقالة الأربعون^١ في عدم الانتقال من موضع إلى موضع

الأمانة هي أم كل عمل صالح وبها يقتني الإنسان مواعيد ربنا وإلهنا يسوع المسيح كما كتب ان خلواً من الأمانة غير ممكن أن نرضي الله وعدم الأمانة هي قنية مثمرة للمحال التي هي أم كل عمل خبيث لأنه منها يتولد انقسام النفس الذي هو عدم الترتيب لأن الرجل المنقسم النفس لا ثبات له في جميع طرقه .

إن خرجنا إلى القفر فلا تستقر أرجلنا وإن دخلنا إلى الأصقاع المسكونة نطوب المتصرفين في القفر ، يا أخوتي إن لم نزرع فكيف نحصد ، إن لم نقدم الأثمار لمانح الثمر فكيف نستطيع أن نثمر ، إذ لم نصبر علي الحزن فكيف نجد الراحة ، إن لم نثبت في البرية فكيف نأخذ ثواب تغربنا ، وإذ لم نؤد المسكنة والضيقة فكيف نأخذ الغنى الصادق ، إذ لم يحسن مختبرنا في الشتائم والكلام والاحتقارات فكيف نتبع آثار السيد ، وإذا لم نحتمل أن نكون بأمل الرب في طاعة الشيوخ ننتقل من مكان إلي مكان .

فأولاً سبيل الإنسان أن يستعلم من أفكاره من أجل ماذا ومن أجل أي سبب يريد أن يترك موضعه الذي يسكن فيه لئلا يريد أن يهرب من التعب فيطلب البرية الداخلية ظاناً أنه يجد موضعاً خالياً في البرية ، أو جرح أيضاً من الشيطان الماقت الخير بحسده إن كان تقدم نجاحه في الأمور المرئية ولم ينل مبدأها ولهذا يؤثر أن يترك مكانه ، أو هارباً من عمل الفضائل ، أو لم يحتمل أن يكون في الخضوع فيطلب التوحد ، أو يلتمس ميراثاً أرضياً يروم من أجله أن يترك مكانه لأن الأفكار توضح هذه إن فحصناها وفتشناها وإذا عرفنا الألم الذي يؤدينا فلا نتبعه ، فلا نسقط في أيدي الشياطين الخبيثاء .

أفحص إذاً ذاك بدقة إن كان الأمر الصائر هو من أجل الله محضاً أو بقصد فاسد ، لأن كل من يعمل أمراً بلا مشورة يضاهي رجلاً يطارد برجليه طيور طائرة صانعاً الأمور الناتجة منه بلا مشورة ، أما الرأي الصالح فهو بحفظ وصايا الرب .

فماذا ينبغي أن نقول عن هذه الأشياء ، نحتاج يا أحبائي إلى التيقظ لأن العدو يحارب اختيار الأخوة فإن تنازل الأخ أن يفارق الموضع يحتال العدو أن يقتنصه بفخ في موضع آخر ، فإن طردنا الناس من أجل حسد أو كلفونا أن نشارك أعمال غريبة وهربنا إلى موضع آخر فلنا دالة عند الله إذ ربنا ومخلصنا يسوع المسيح يقول لتلاميذه إن طردوكم من هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى ، أما عن عدم التنزه فالمخلص قال أيضاً لا تنتقلوا من بيت إلى بيت وأيضاً أية مدينة دخلتم أقيموا هناك . أما إن شئنا أن نعمل مشيئاتنا فإية فضيلة هذه ، فإن افرزنا المتقدمون علينا فلنمنح موضعاً مقاومين المحال أكثر فهكذا عمل داود إذ كان يحارب القبائل الغرباء تنحى من وجه شاول .

إن سكنت حسناً في البرية وأذاك الفكر أن تنتقل إلى الأصقاع المسكونة فأجبه واصفاً حرب العالم والنوائب العارضة للذين يسكنون هناك ، إن سكنت في الكنونيون حسناً وحضك الفكر أن تدخل إلى البرية فأجبه مخبراً بحربها وتعبها ، وإن سكنت وحدك منفرداً وأذاك الفكر أن تدخل إلى مجمع أخوة فأجبه ناعثاً جهادات الذين في الأديرة .

^١ كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في برية الأنبا مقاريوس طبع سنة ١٨٩٢

لا نتبع بلا تمييز أفكارنا لأننا لا نعرف ما يوافقنا كما تقول الحكمة لا ترفع ذاتك برأي نفسك فيؤكل ورقك ويضيع ثمرك وتترك ذاتك كالعود اليابس والخلاص يصير في المشاورة الكثيرة لكن ربما تؤثر أن تقول أننا من أجل الاضطراب ومن أجل الوقوعة نريد أن نهرب من هناك ، فأحتمل إذا فأشير عليك بكلمة أتوثر أن نهرب من السجس والوقوعة ضع باباً على فمك بالرب ، وأردد عينيك ألا تبصر الأشياء الباطلة فهذا نغلب الأمرين كلاهما فالوقوعة بالسكوت ، والاضطرابات بتحفظ العينين فإن لم نغلب هذين نصادف أين ما مضينا في ذاتنا الذين يحاربوننا ، فأغلبهم يا حبيبي فيكون لك نياح أين ما جلست .

لكنك ربما تقول أنه عرف انقلاب رأبي وونيتي عند أخوتي كلهم ومن أجل هذا لا يمكنني أن أجلس في هذا الموضوع لأنني قد اشتبهت الفضيلة لكن الناس الذين أسكن معهم هم بفكرهم يدينونني ، فأسمع يا حبيبي أعمل الخير فتبصر الرب يشفي ضميرك وضمير أخوتك في أو هامهم فيك أو كيف تحتمل أن تخلي الموضوع والأخوة مرتابين بما يتوهمونه فيك ، أتهرب من تعيير الناس وتمضي إلى مكان آخر حيث تظن إنك تجد من لا يذكر نقيصتك الأولى إذ النبي يقول : انتظرت نفسي التعبير والشقاء . لأن التعبير يوافقك جداً والاستحقر من الناس من أجل الرب ليظهر الخطايا . ويقنعك بذلك النبي قائلاً : إنه في تواضعنا ذكرنا الرب وفداننا من أعدائنا . بل حيث طرحت المعاند قم وصارعه لكي الذين عرفوا مناقصك تظهر تقويماتك وبهذا تحتضن من الرب مجداً عظيماً إذ مخلصنا يسوع المسيح يقول : ويكون الأولون آخرين والآخرين أولين .

لأنه حين يغسل الثوب الوسخ لا يترك أيضاً مع الثياب الوسخة ، وإن كان أحد بحسد أو غيره خبيثة يسمى النقي وسخاً فلا يصدق لأن منظر الثوب يوبخه لأنه زعم : تغسلني فأبيض أكثر من الثلج .

أما الذين يضادونك ويؤثرون أن يقبلوا فكرك فالكتاب يقول : ويل للذين يسقون قريتهم مشروباً كدراً الذين تركوا الطريق المستقيمة ليمضوا في سبيل الظلمة ، المسرورون بالأساء والمستبشرون بارجاع الردئ الذين طرقتهم معوجة ومناهجهم وعرة ليجعلوك بعيداً من طريق الحق المستقيمة وأجنيباً من العزم المقسط فلذلك يقول الرب أنهم لا يجدون سنين الحياة لأنهم لو كانوا سلكوا سبيلاً صالحاً لوجدوا طرق الصديقين الممهدة .

الصالحون يكونون قاطني الأرض وأهل الدعة يبقون فيها ، وطرق المنافقين تبيد من الأرض وأعداء الناموس يقصون منها ، يا ابني لا تنسى شرانعي وليحفظ كلماتي قلبك فإن المجد لله إلى الدهور . آمين .

أيها الأخ إن أمرت أن تقرأ في مسامع الأخوة فتصور بحرر أين كمل الفصل المبتدئ بالقراءة فإذا تناولت اللفظة فأبتدئ بالقراءة لتكون قراءتك كجديلة منسوجة بذهب لأن من يتهاون بكلمة واحدة ويقلب الفصول لا يؤثر أن يتعلم كما يجب ولا يعلم الذين يصغون إليه بل يطلب آخر القول وكمال الكتاب فأنت يا حبيبي صر متيقظاً لتنتفع نفسك والسامعين .

وإن أمرت على غفلة أن تقرأ فأبتدئ من جانب الكتاب الأيسر فإن كان أبتدأ القول فقل العنوان لأنه بهكذا يعرف المعنى ، وإن أقتنيت كتاباً فليكن مفهوماً مكتوباً بأجمل الكتابة وأبينها لنلا يصير عثرة لمن يقرأه وينسخه .

أيها العابد هكذا وعدت المسيح أن ترضيه أن لا تحتمل بشهامة المحن والغموم الآتية إليك من المضادين ولا تقبل الآداب والضغطات من المتقدمين عليك إذ الرسول يقول إن كنتم خالين من الأدب الذي شاركه الكل فأنتم نغول .

أضربت ! أفرح لأنك ضربت ، أجدت بواجب ! أفرح لأن ثوابك جزيل لأن الرسل الذين بشروا العالم بالخلاص كانوا في كل مدينة يُضربون كعمال الشر فلم يسخطوا ولم يغتاظوا بل كانوا يسرون لأنهم أهلوا أن يهانوا من أجل أسم المسيح .

فأفرح أنت لأنك قد أهلت أن تُهان من أجل اسمه ، لكن لعل أحد المتوانين يقول إنما أحزن لأن هذا أصابني بعد هذه الأتعاب ، يا عبد الرب أهذا يحزنك أمن هنا تعرف ذاتك إن كنت بالحقيقة بعد هذه السنين غلبت الآلام ، إن كنت قد سررت بالهوان الذي أفاك ولم يشتغل ذهنك بالتصرف الصائر لأنه إن ظن أحد إنه شئ وهو لا شئ وإنما يخادع ذاته لأن نجابة المدبر إنما تظهر في أوان تقاطر الموج ، فمن يتعظم ويقول إن لي مثل هذه السنين في سيرة العبادة ولم يوضح صناعة الموعد يأتي بأداة وينضدها وهو لم يتعلم الصناعة .

أشخت في الإسكيم وحصلت كمن له خبرة بالسيرة المقدم ذكرها صر مثلاً للشباب والذين لا خبرة لهم ، وإن كنت نصية جديدة فأخضع للشيوخ فإن جنود الملك الأرضي يخضعون لمديريهم وقوادهم لا من أجل الخوف فقط بل من أجل الضمير ، فإن كان أولئك المتجددون بجندية بشرية يوضحون كل حرص ليسترضوا الذين يطيعونهم فكيف تحتل أنت الجاحد هذه الحياة أن تجتذب مسحوباً من مثال هذه الآلام ولا تطيع ولا تخضع وتطرح التأديب بالمسيح ملتماً مدائح ومجد العباد الكاملين وتُهرب من الأتعاب التي صارت بها الكرامات .

لم تحتل أن تضيع مثل هذا السكوت والتعب من أجل يوم واحد أو ساعة إن قتلت نفسك فمن يرحمك أهذا هو مديحك أهذه هي نجابتك أن يعرض لك حزن يسير فتكفر بالإسكيم والسيرة وتمنح العدو عليك سلاحاً بونيتك .

يا أخي لا تمنح المضادين ظهراً بل أنتصب وقاتل فيهربون عنك لأنني أشعر أن المقتبل أن يكون متوسطاً لك لا يسر بالعيب الذي لك الذي سيعطي عنك جواباً للرب هذا هو سروره إن وقفت للرب كاملاً ، أيها الحبيب عدُ إلى ذاتك وأرجع إلى راحتك ألبس درع العدل وتناول حربة الأمانة وضع عليك خوذة الخلاص وتناول سيف الروح الذي هو كلمة الله ، صر مثلاً وداعة في الآلام للأخوة الناظرين لنفسك ، وليتعجب الذين هم أكبر نسك من صبرك ، وليُسِر الروح القدس الساكن فيك بشجاعتك .

أما إن كنت لا تحتل المحنة فكيف تحتل العظمة ، وإن كنت لا تغلب صبيهاً فكيف تصارع رجلاً كاملاً ، وإن كنت لا تحتل كلمة فكيف تحتل كلوماً ، وإن كنت لا تحتل لطفة وشجة فكيف تحتل صليباً ، وإن كنت لا تحتل صليباً فكيف ترث المجد في السموات مع القائلين هذه النوائب كلها تقاطرت إلينا فما نسيناك ولا ظلمنا في عهدك ، وأيضاً من أجلك نمت كل يوم وحسبنا كغنم للذبح .
أشأن أن أسكت أيها الحبيب من أجل خزي وجهي لكن وجع قلبي يضطرنني أن أتكلم نعم أيها الحبيب قد نسينا الأشياء التي أحتملها سيدنا كلها من أجلنا شتم ورذل وسمع بك شيطان فلم يسخط سمع أيها المضل فلم ينتقم ، لطم أهين صلب ذاق خلاً مع مر طعن بحربة في جنبه ، هذه كلها أحتملها من أجل خلاصنا .

ويلي أنا الشقي ويلي أنا الخاطئ فإنني بلا عذر ماذا أقول؟ وماذا أتكلم؟ أنت تعرف خفيات قلبي أغفر لي اللهم أنا الغير مستحق فإني لا أؤثر أن أسمع شيئاً بالكلية ولا كلمة من أجلك ، من لم يبكي على المقتني التورع حجاباً للرديلة ، ترهبت بالكلام وأنا أسخط الله بأعمالي بالحقيقة من أجل تكاثر الإثم تفسد محبة نفوس كثيرة ، أتضرع إليكم يا أخوتي أن نتيقظ لدى الرب فإنه لا يطرح المؤثرين أن يخلصوا بل يؤازرهم ، فلنقل نحن مع النبي : أرجعي يانفسي إلى راحتك فإن الرب أحسن إليك لأنه نجى نفسي من الموت وعيني من الدموع ورجلي من الزلوق لأرضي الرب قدامه في أرض الأحياء لنؤهل أن نسمع القول إن هذا ابني وكان ميتاً فعاش وضالاً فوجد . ولإلهنا المجد مع أبيه وروح قدسه

أمين